

التحرير والتنوير

ومنهم من أظهروا الإيمان كذبا وهذا هو الفريق الأكثر . وليس ما أظهروه في شيء من الإيمان وقد قال الله تعالى في مثلهم (وكفروا بعد إسلامهم) مسماة إسلاما ولم يسمه إيمانا . ومنهم الذين قال الله تعالى فيهم (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) . وإطلاق الإيمان على مثل هذا الفريق مجاز بعلاقة الصورة وهو كإسناد فعل (يحذر) في قوله تعالى (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) الآية في سورة براءة . وعلى هذا الاعتبار يجوز أن يكون (ثم) مستعملا في معنييه الأصلي والمجازي على ما يناسب محمل فعل (آمنوا) .

ولو حمل المنافقون على واحد معين وهو عبد الله بن أبي جاز أن يكون ابن أبي آمن ثم كفر فيكون إسناد (آمنوا) حقيقة وتكون (ثم) للتراخي في الزمان . وتفريع (فهم لا يفقهون) على قوله (آمنوا ثم كفروا) فصار كفرهم بع الإيمان على الوجوه السابقة سببا في سوء أعمالهم بمقتضى باء السببية وسببا في انتفاء إدراكهم الحقائق النظرية بمقتضى فاء التفريع . والفقه : فهم للحقائق الخفية .

والمعنى : أنهم لا يدركون دلائل الإيمان حتى يعلموا أحقيته . (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) هذا انتقال إلى وضع بعض أحوالهم التي لا يبرزونها إذا جاؤوا إلى النبي A ولكنها تبرز من مشاهدتهم فكان الوضع الأول مفتحا ب (إذا جاءك المنافقون) وهذا الوضع مفتحا ب (إذا رأيتهم) .

فجمله (وإذا رأيتهم) معطوفة على جملة (فهم لا يفقهون) واقعة موقع الاحتراس والتتميم لدفع إيهام من يغره ظاهر صورهم .

واتبع انتفاء فقه عقولهم بالتنبيه على عدم الاغترار بحسن صورهم فإنها أجسام خالية عن كمال الأنفس كقول حسان ولعله أخذه من هذه الآية : .

لا بأس بالقوم من طول ومن غلط ... جسم البغال وأحلام العصافير وتفيد مع الاحتراس تنبيها على دخالهم بحيث لو حذف حرف العطف من الجملتين لصح وقوعهما موقع الاستئناف الابتدائي . ولكن أثر العطف للتنبيه على أن هاتين صفتان تحسبان كمالا وهما نقيصتان لعدم تناسقهما مع ما شأنه أن يكون كمالا . فإن جمال النفس كجمال الخلقة إنما يحصل بالتناسب بين المحاسن وإلا فربما انقلب الحسن موجب نقص .

يدخل فلا صورهم تغره أن يظن ممن يراهم من كل يشمل معين لغير الآية هذه في فالخطاب A E فيه النبي A لأن ا قد أطعمه على أحوالهم وأوقفه على تعيينهم فهو كالخطاب الذي في قوله في سورة الكهف (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) .

والظاهر أن المراد بضمير الجمع واحد معين أو عدد محدود إذ يبعد أن يكون جميع المنافقين أحاسن الصور . وعن ابن عباس كان ابن أبي جسيما صحيحا صبيحا ذلق اللسان .

وقال الكلبي : المراد ابن أبي والجد بن قيس ومعتب بن قشير كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة . وقال في الكشف : وقوم من المنافقين في مثل صفة ابن أبي رؤساء المدينة .

وأجسام : جمع جسم بكسر الجيم وسكون السين وهو ما يقصد بالإشارة إليه أو ما له طول وعرض وعمق . وتقدم في قوله تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم) في سورة البقرة . وجملة (وإن يقولوا تسمع لقولهم) معترضة بين جملة (وإذا رأيتهم) الخ وبين جملة (كأنهم خشب مسندة) .

والمراد بالسمع في قوله (تسمع لقولهم) الإصغاء إليهم لحسن إبانتهم وفصاحة كلامهم مع تغريهم بحلاوة معانيهم تمويه حالهم على المسلمين .

فاللام في قوله (لقولهم) لتضمن (تسمع) معنى : تصغ أيها السامع إذ ليس في الإخبار بالسمع للقول فائدة لولا أنه ضمن معنى الإصغاء لوعي كلامهم .

وجملة (كأنهم خشب مسندة) مستأنفة استئنفاً بيانياً جواباً عن سؤال ينشأ عن وصف حسن أجسامهم وذلاقة كلامهم فإنه في صورة مدح فلا يناسب ما قبله من ذمهم فيترقب السامع ما يرد بعد هذا الوصف .

ويجوز أن تكون الجملة حالا من ضميري الغيبة في قوله (رأيتهم تعجبك أجسامهم) . ومعناه أن حسن صورهم لا نفع فيه لأنفسهم ولا للمسلمين